

التنظيم الصحي الثوري في الولاية الأولى (1954-1962)

د/جمال قندل

جامعة الشلف

الملخص:

تعالج هذه الدراسة إشكالية التنظيم الصحي خلال فترة الثورة الجزائرية، بالولاية الأولى، انطلاقا من الأهمية التي يكتسبها هذا التنظيم، في دفع وتطوير الثورة الجزائرية بأبعادها المختلفة، الصحية، الإعلامية، الاجتماعية، السياسية، العسكرية والإستراتيجية في الآن ذاته، وهي الحقيقة التي أدركتها قيادة الثورة وسعت إلى توفير الأدوات اللازمة والضرورية في نطاق المتاح والممكن، فضلا عن الإطار البشري القائم على إدارة وتفعيل التنظيم، من خلال التدريب والتكوين.

الكلمات المفتاحية:

تفجير الثورة، الولاية الأولى، الأوراس، رد فعل الاحتلال الفرنسي، التنظيم الصحي، الأطباء والممرضون، التكوين.

Summary:

This study deals with the problem of health regulation during the period of the Algerian revolution. The first state (the Auras) is based on the importance of this organization in advancing and developing the Algerian revolution in its various dimensions, health, media, social, political, military and strategic. Revolution and sought to provide the necessary and necessary tools in the scope available and possible, as well as the human framework based on the management and activation of the organization, through training and training.

Key words

The revolution, the first state, the Auras, the reaction of the French occupation, the health organization, the doctors and the dispossessed, the composition.

مقدمة:

لم تهمل قيادة الثورة الجزائرية الجانب الصحي، باعتباره ركيزة أساسية في دعم وتطوير العمل العسكري في الزمان والمكان. وقد عكس الاهتمام بهذا القطاع الحرص الكبير الذي أولته الثورة له، قصد توسيع مجال نشاطها على نحو يكفل لها تعميق التفاف الشعب حولها التفافا صادقا، هادفا، ودائما. والجدير بالذكر، أن المجال الصحي خلال فترة الثورة ارتكز على أربعة ركائز رئيسة، على طريق تحقيق أهدافه الآجلة والعاجلة، تتحدد وفق الآتي:

- أ- العمل على توفير الدواء كما ونوعا، وضمان توزيعه على مختلف مناطق الثورة لاستعماله عند الحاجة.
- ب- توفير الإطار البشري الطبي وشبه الطبي، على نحو كاف ومتوازن بين مختلف المناطق.
- ت- السهر على ضمان التكوين في مجال شبه الطبي في الجزائر، وخارجها من خلال البعثات لسد كل الاختلالات والعجز الذي قد يُسجل على مستوى أي جهة.
- ث- العمل على توفير المصحات في الجبال وتزويدها بالأدوية اللازمة والضرورية، فضلا عن توفير المستشفيات المتنقلة (1).

وضمن هذا المنحى ينضوي التنظيم الصحي، الذي يشكل مركزا لتوسيعها وإدامة استمراريتها وتطويرها، حتى يتأتى لها تجسيد أهدافها، انطلاقا من فكرة أساس، أن الثورة عليها أن تكون شاملة حتى يتأتى لها تحقيق أهدافها. باعتباره أحد القطاعات الحساسة. وقد حظي بعناية خاصة من طرف الثورة، من أجل توفير الخدمات الصحية في حدها الأدنى للمجاهدين، على مختلف الدرجات. (2) واللافت أن الطب الثوري لم يقتصر أداؤه فقط على معالجة مرضى جيش التحرير، ومداداة جرحاه، والسهر على توفير الشروط الموضوعية للنقاهة في حدود الممكن، بل تعداه ليقدم خدماته في العلاج العام لأفراد الشعب الجزائري بجانا وعادلا في الآن ذاته، فالطاقم الطبي هو الذي كان ينتقل للقرى والمداشر والمشاقي للوقوف على الحالة الصحية للشعب (3).

(1)-Mustapha Benamar, C'étaient Eux les Héros, éditions Houma, Alger, 2002, p 53.

(2)- جمال قنن " لحظة تاريخية عن جيش التحرير الوطني " أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني، المنعقد في الجزائر بتاريخ 4/3/2005، منشورات م. و. ج. ب. ح. و. ث أول نوفمبر 1954، 2010، ص 69.

(3)- بوطمين جودي الأخضر، لمحات من ثورة الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 215.

- العقيد الحاج لخضر، قيسات من ثورة نوفمبر 1954 كما عايشها العقيد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى، شركة الشهاب، الجزائر (د، ت، ن)، ص 145.

إن التخندق مع الشعب لم يكن سلوكا غريبا من الثورة، باعتبار أن الشعب جزء من الثورة، ولولاه لما كانت الثورة، فكرة، ممارسة، واستمرارا في الزمان والمكان. وهو ما يعكس بصدق البعد الثوري والشعبي للخدمات العلاجية والصحية. وقد بادرت كل منطقة من مناطق الثورة، منذ الوهلة الأولى للتفجير إلى التفكير في هذا الجانب لما ينطوي عليه من أهمية لا تعزب عن أحد. يمكننا التفصيل في حيثياتها من خلال الآتي:

1- تحديد نطاق الولاية الأولى:

تحتل المنطقة الأولى، موقعا إستراتيجيا، وهو ما جعل الإدارة الاستعمارية منذ اندلاع الثورة تركز عليها تركيزا خاصا، من طرف مختلف المسؤولين العسكريين، السياسيين، الأمنيين، بل وحتى المستوطنين، وكذا رجال الإعلام، بصورة تعكس الثقل الكبير الذي تمثله في تطوير وتعزيز العمل المسلح، ليس على مستواها فحسب، بل على امتداد كامل التراب الجزائري. ولعل من أبرز خصائصها الطبيعية، اتساع مساحتها وكثافة ومناعة جبالها.

وللإشارة، فإن الولاية الأولى تمتد على الجهة الشرقية من جبل سي صالح شمالا، إلى نقرين جنوبا على الحدود الجزائرية التونسية. وتمتد على الجهة الغربية من برج بوعرييج إلى المسيلة، ومن الناحية الشمالية تمتد الولاية من سطيف إلى العلمة، أولاد رحمون، سيقوس، قصر الصبيحي، سدراتة، مداوروش، كحدود مع الولاية الثانية، فالونزة، المريح، جبل سي صالح، كحدود مع القاعدة الشرقية. أما من الناحية الجنوبية، فإن الولاية تمتد من المسيلة عبر شط الحضنة، بركة، بيطام، تيلاطو، معافة، الجبل الأزرق، خنقة بني بوسليمان، جبل أحمر خدو، شمال سيدي عقي، عين الناقعة، سيدي خليل، خنقة سيدي ناجي، زريبة الوادي، بونقار، بوقشة، جنوب نقرين بالحدود التونسية، كحدود مع الولاية السادسة⁽¹⁾.

2- بداية تنظيم القطاع الصحي

(1)- المنظمة الوطنية للمجاهدين، أحداث الثورة التحريرية بالأوراس، الجزء الأول، التقرير السياسي، الملتقى الوطني الرابع، لتسجيل أحداث الثورة التحريرية، من فاتح جانفي 1959 إلى 5 جويلية 1962 (بدون تاريخ)، ص 3.

لقد تداول، على الولاية الأولى، قادة كثيرون، هم: مصطفى بن بوالعيد، بشير شيجاني، محمود الشريف، محمد لعموري، أحمد نواورة، أعبيد محمد الطاهر، المدعو (الحاج لخضر)، وفي أواخر سنة 1961، تولى قيادة الولاية، العقيد طاهر زيري. وتضم الولاية، ستة مناطق، ولكل منطقة، أربعة نواحي، ولكل ناحية، أربعة أقسام. وللإشارة، فإن المنطقة الثالثة أصبحت نواة وقاعدة، للولاية السادسة. أما مقر الولاية، فقد كان بغاية لراحة (جبل كيمل) وأصبح يضم، بين سنة وسبعة مراكز، تنتقل، حسب الظروف، وتتكون من:

أ/ مركز لمسؤول الولاية وأعضاء القيادة والكتابة العامة. ب/ مركز لمسؤول فوج الحراسة. ج/ مركز لأمن المال والشؤون الإجتماعية. د/ مركز للمؤن. هـ/ مركز لجهاز الإتصال اللاسلكي، والفريق المسير، وفوج الحراسة. و/ مركز خاص بالكثائب. ويتربع كل مركز على مساحة تتراوح بين 7 و 10 متر مربع. أما مقر الولاية، فإنه منتقل بين، غابة لراحة، بني ملول وكيمل.

اهتم قادة الثورة ومسئولوها في المنطقة الأولى بالجانب الصحي، مثل اهتمامهم بالقطاعات والمجالات الأخرى، إدراكا منهم لدوره الحيوي في الحفاظ على توازن واستمرار الثورة. وقد كانت البداية تتم وفق طرق تقليدية، يلجأ المجاهد فيها إلى تضميد جراح مجاهد آخر يسقط جريحا في معركة أو اشتباك، ولكن ابتداء من سنة 1955، بدأ العمل على تنظيم القطاع الصحي على نحو أكثر دقة وشمولية، حيث شُرع في ربط الاتصال مع المرضى وترغيبهم في الالتحاق بصفوف الثورة، لخدمتها في مجال تخصصهم. وقد أثمرت الجهود بالتحاق أول ممرضة بالثورة، بعد أن شعرت أن خطر المطاردة من طرف سلطات الاستعمار، بات يلاحقها عندما وقف على حقيقة تعاملها مع الثورة، من خلال تقديمها مساعدات خدماتية في هذا الشأن.

وقد اشتغلت الممرضة حورية مداسي بناحية باتنة، وبقيت هناك تضطلع بمهمة التمريض لفترة، ثم أرسلت إلى الريف لتكون قرية من العائلات الجزائرية، لتتكفل بمهمة نشر الوعي الصحي لدى الأمهات تجاه أطفالهن، فضلا عن قيامها بالخدمات الصحية المختلفة التي تحتاجها تلك الأسر، بصورة تجعل أفراد الشعب قريين من الثورة وفي خدمتها باستمرار، إدراكا من الثورة لأهمية الحركة والعمل وسط الشعب الحاضن، الممول والممون للثورة، خاصة وأن إدارة الاحتلال الفرنسي، نزلت إلى الريف بثقل كبير بغرض استقطاب النساء من خلال العمل التطوعي الذي اضطلعت به الفرق الطبية المتنقلة "les équipes médico-sociales itinérantes". وقد أنشئت هذه الفرق، سنة 1957 حيث ضمت طبيبا ومساعدة مسيحية، ومساعدتين مسلمتين، يعيشون وسط جنود الاحتلال¹.

وقد ضبطت مهمة تلك الفرق، ضبطا دقيقا، في إطار الحرب النفسية الشاملة ضد الثورة. حيث تمثلت في التركيز على النساء المسلمات الجزائريات، من خلال ضبط اتجاه الرأي العام النسوي الجزائري⁽²⁾ وإحطار إدارة الاحتلال لاتخاذ ما يكون مناسباً من قرارات تحمل القدرة على صياغة عقلية المرأة الجزائرية، صياغة جديدة تأخذ بعين الاعتبار معطى الاحتلال، وما يستلزمه من مرونة فكرية، تعتمد تجزيء وتفتيت فكرة الاحتلال، مع عرضها وفق منهج قائم على التغفيل وصولا إلى التحبيب والترغيب، وأخرى عملية، لإحداث التأثير المرجو.

(1) -SHAT :1H2461,dossier n°1 « centre sociaux E.M.S.I »

(2) -Ibid .

-جمال قندل، " إستراتيجية الاستعمار الفرنسي...."، مرجع سابق، ص 318.

والخليق بالإشارة هنا، أن مسألة الاهتمام بالمرأة الجزائرية، لم تكن قط وليدة هذه المجموعات، وإنما تعود إلى سنوات خلت، بعد أن أدركوا موقع المرأة الجزائرية المسلمة من عملية التحرير ووقفوا على دورها الرئيس في حركة التغيير. كما أنشئت ما عرف بالمساعدة الطبية المجانية (Assistance médicale gratuite)، حيث ظهرت هذه الفرق، في شهر جويلية سنة 1956⁽¹⁾ وأنيطت بها مهمة تقديم وتوفير المساعدات الطبية اللازمة والضرورية للشعب، سواء تعلق الأمر بالعلاج أو المتابعة الطبية، فضلا عن تقديم الدواء، لكل حالة مرضية، على حدة. وقد تحمل هذه المسؤولية، أطباء عسكريون، منهم حوالي خمسين طبيبا، من الليفيف الأجنبي. حيث عمل الكل تحت مسؤولية رئيس الصاص. وقد بلغت الاستشارات المجانية التي قُدمت في هذا الشأن تسعة عشر ألف (19000) سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين، فيما بلغت سنة ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين، مليون وثلاثمائة ألف استشارة⁽²⁾.

وقد بدت أهميتها في إمكانية إحداث التأثير، وبخاصة في الوسط النسوي الجزائري، بفعل الاحتكاك الدائم والمباشر به، فضلا عن محاولات إظهار عمق الحرص على مصلحة النساء، ومستوى الاستعداد الدائم لتقديم الخدمة والاستشارة اللازمة والضرورية، في كل حين وأن، بشكل يفرض مع مرور الزمن إلى توطيد التقارب، وتمتين الثقة بين الوسط النسوي الجزائري وتلك الهيئات.

وللإشارة، فإن اسماعيل مصطفى محفوظ، عوّض حورية مدلسي بعد انتقالها إلى الريف، غير أنه لم يكن طبيبا، ولا طالبا في الطب، ولكن مُحضرا صيدليا، وهو ما لم يُشر إليه العقيد الحاج لخضر، الذي قدمه على أنه كان كثير التنقل بين أرجاء المنطقة، التي بات يعرفها جيدا حيث يتواجد المرضى، وهو من أسس العمل الصحي بالمنطقة⁽³⁾ غير أن الحقيقة هي خلاف ذلك تماما، ذلك أن أول طبيب التحق بالثورة على مستوى المنطقة الأولى، قادما من البليدة، حيث كان يشتغل في مستشفى الأمراض العقلية، هو الدكتور قونيون Gounillon، وهو يهودي، مناضل في صفوف الحزب الشيوعي، التحق بمعينة عناصر أخرى من الحزب الشيوعي نهاية 1955، بغرض إنشاء مستشفى بالأوراس. بيد أنه قتل هو

(1)-SHAT :Introduction...op. cit,p 223.

(2)-Ibid .

(3)-نفسه، ص 145.

وأصحابه من طرف الثورة سنة 1956⁽¹⁾. والتحق بالمنطقة الرابعة من الولاية الأولى، أول طالب في الطب، حمو بوشوارب ولكن لم يلبث كثيرا في المنطقة، حيث حوّل إلى تونس بعد عدم امتثاله لأوامر وتعليمات جيش التحرير القاضية بعدم التدخين، حيث ضُبط ذات مرة يدخن خلال قيام دورية بعملية المراقبة، ما استدعى إحالته على مجلس المنطقة لمحاكمته وقد صدر بحقه حكم بالإعدام، وبتدخل من أحد أعضاء المجلس، الذي بدا أكثر تفهما لوضعه خاصة وأن حمو بوشوارب سبق وأن أشرف على علاجه ذات مرة، فلم ينس صنيعه به، فاقترح على المجلس وقف التنفيذ، بدلا من الانعدام.

إضراب الطلبة وتطوير الخدمات الطبية

بعد إضراب الطلبة في التاسع عشر ماي 1956، انضم الطالب في كلية الطب، عبد الحميد بن غزال إلى المنطقة الأولى، ومكث بها فترة من الزمن، ثم التحق بسويسرا سنة 1957، بأمر من قيادة الثورة لإكمال دراسته في الطب، على اعتبار أنه عندما التحق بالثورة كان طالبا في السنة الثانية. كما انضم كذلك بعد الإضراب العام، الطالب في نهاية السنة خامسة طب، عثمانة محمود، إلى الثورة بتونس، حيث اشتغل بمستشفى بمدينة سوس، إلى جانب أطباء جزائريين آخرين، جمال الدين بن سالم ومراد طالب، ثم التحق بالداخل ليستقر بالولاية الأولى. كما التحق بالولاية الأولى فيما بعد، الدكتور عبد السلام لخضر بن باديس، وهو من عائلة الشيخ بن باديس، مختص في طب العيون، كان يشتغل بقسنطينة⁽²⁾.

وفي مقر الولاية الأولى، أقيم أول مستشفى بغابة لبراجة بعد توفر الإطار الطبي⁽³⁾. كما تم تجهيز ثلاثة مراكز طبية أخرى بمقر الولاية، حتى تفي بالغرض في المجال الصحي. لم تكتف الولاية الأولى فقط بما لديها من طاقم طبي وشبه طبي لأداء خدماتها على امتداد مناطق الولاية، وبالنظر إلى شساعة مساحتها، ووجود بعض الحالات الاستعجالية، فإنه كان يتم

(1)-Mostefa Khiati, **Les blouses blanches de la révolution**, éditions ,ANEP ,Alger,2011,p 178.

- وحول عملية قتله بمعية العناصر الشيوعية التي التحقت معه بالثورة فب المنطقة الأولى، اعتبرها البروفيسور مصطفى خياطي خطأ من خلال قوله " II aurait été tué avec ses compagnons avec méprise " من غير أن يقدم أي قرينة تدعم ما ذهب إليه ربما تعاطفا معه باعتباره طبيبا مثله، نظر إلى المسألة من زاوية إنسانية لا غير تركز على الأداء الخدماتي الطبي. غير أن العقيد الحاج، قدم في شهادة له وقائع مادية، كيف من طرف قيادة الثورة بالمنطقة الأولى على أنها عمل خطير، يضر بأمن واستقرار الثورة " للاستزادة حول الموضوع، أنظر:

جمال قندل، إشكالية تطور وتوسع الثورة الجزائرية 1954-1956، ج1،

(2)- Mostefa Khiati,op. cit,p178.

(3)-العقيد حاج لخضر، مصدر سابق، ص 143.

الاستنجاد بأطباء في مختلف مدن الولاية، حيث يلتحقون ليلا لإجراء الفحوص الطبية للمرضى ثم يعودون، وإذا كان بعض المرضى بحاجة إلى إجراء عملية جراحية معقدة تقتضيها حالتهم الصحية، ففي هكذا حالة يرسل المريض إلى الأطباء المدنيين الذين يتعاملون مع الثورة فيعودون له ملفا طبيا كاملا، حتى يتأتى له دخول المستشفى، فتجرى له العملية اللازمة، وبعد فترة النقاهة يعودون إلى حيث جاءوا. ومن جملة الأطباء الذين أدوا دورا رياديا في هذا المجال، الطبيبان، أحمد يكن، وسي علي ولد محمد⁽¹⁾.

الخاتمة:

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن قطاع الصحة عرف تطورا ملحوظا ابان الثورة التحريرية، ففي الولاية الأولى أدى قطاع الصحة والأطباء دورا مهما في التكفل بالمرضى والمصابين، وبعض الأطباء نهضوا بمهام عسكرية وسياسية.

(1) العقيد حاج لخضر، مصدر سابق، ص 144.